من معجزات الإسلام فى القرن الرابع عشر الهجرى :

بين مهاجرى قفقاسيا الجنوبية

قالت السيدة : «هذه الأرض الطيبة نبارككما الرب لأهلها»

للأستاذ أحمد رمزى بك

إن القوة الإسلامية التى بعث بها الخليفة عثمان بن عفان[1] وكانت من عرب الجزيرة وأهل الشام تحت قيادة حبيب بن مسلمة الفهرى إلى أرض الشمال لازمها الحظ فى الحروب حتى أخضعت ما وراء أرمينية ونفذت إلى بلاد القوقاز ، ولما طلبت الإمداد جاء

(١) ذكر صاحب مقالة باكو فى دائرة المعارف الإسلامية اكتشاف بعض القبور الإسلامية بشواهد تحمل ٨١٨ هجريا فى قصر شروان شماخى وتقع فى شمال باكو . أرجو الاطلاع على المراجع فى نهاية الحديث

ذات سيادة . ولقد كانت الدعوة الدينية التى اضطلع بها القائد الأعظم عدته وعديده فى بناء صرح الباكستان وجعلها قوة ملحوظة الجانب مرهوبة الشأن .

ولقد ثارت العواصف حول هذه الدولة إبان قيامها ، واكتنفتها المزاعم تريدها على أن تحنى الهام وتعود إلى الوحدة ، فأبى لها جناح للخنوع والذلة قائلا : « نحن نعلم المصير الأسود المهيأ لنا إذا اضطررنا يوماً إلى الركوع وطلب المغفرة والعودة إلى الوحدة ؛ ولذلك وطدنا العزم على ألا نفشل مهما تقاسى ومهما نشق . امنحونا سنتين ولن يستطيع أحد بعدئذ أن يرغمنا على الركوع »

ولقد صدق القائد الأعظم حين صدق الله وعده له ، فها هى ذى دولة الباكستان تسير بخطى فسيحة متوثبة طموحة إلى أبعد الغايات وأسماها فى الوطنية والقومية والاجتماع .

هيأ الله للباكستان من أمرها رشدا ، وشد أزر رجالها العاملين ليؤدوا رسالة قائدهم الأعظم التى تركها أمانة فى أعناقهم . وسيكتب الله للباكستان الظفر بحقوقها كاملة والغلبة على ما يعترضها من صعاب ، لأنها شعب عميق الإيمان بشريعته السمحة ، عظيم الثقة برب السماء .

ونقنا الله جميعاً لما فيه خير الإسلام والمسلمين .

ابراهيم وسوقى أباظه

إليها جيش من عرب الكوفة عليهم سلمان بن ربيعة الباهلى[1] وهو سلمان الخيل وكان ذلك المدد من المنمية عن طريق أذربيجان التى يتحدثون عنها اليوم .

وانضم الجيشان حتى أتوا إلى بلاد الكرج وجاء صاحب فتوح البلدان بكتاب الأمان الذى أعطى إلى أهل تفليس وقال صاحب معجم البلدان إنها أى تفليس بقيت قروناً بيد المسلمين ثم خرجت من أيديهم ثم عادت فخضعت لآل سلجوق ثم لأهل خوارزم وأخيراً لملك التتار ولا تزال بأيديهم .

فهذه البقعة من أراضى القوقاز بجبالها العالية ومروجها الخضراء وغاباتها وثلوجها ومياهها العذبة روتها دماء الفاتحين من المسلمين ، وطالما سرحوا خيولهم فيها كما أنها استظلت بأعلام العروبة والإسلام فى عهود الراشدين وبنى أمية وبنى العباس وفى يوم قريب من الأيام القادمة ستعثر حتما على بقايا الآثار الإسلامية وستقرأ ويقرأ من يأتى بعدنا ما نقشه السلف على الأحجار تأكيداً لتلك الفتوح وإثباتاً بأن هذه الأرض لشعوب أسلمت ودخل أهلها فى دين الله أفواجاً .

ومن حوادث القرن السابع الهجرى أن الأمير بدر الدين الخازندار كان على ولاية يافا من قبل المصريين فى عهد الملك الظاهر بيبرس وكان لا تشرد منه شاردة فأتاه الخبر بأن ملكا من ملوك الكرج قد دخل عكا عن طريق البحر فى زى الرهبان بقصد بيت المقدس للزيارة فبعث إليه وقبض عليه وسيره للسلطان بدمشق فأنزله ببرج من أبراج قلعتها حتى بعث بنفرين إلى بلاده ليعرفهم بأمره حتى إذا تأكد السلطان من حقيقته أعاده معززاً مكرماً .

وكانت الصلات قائمة على أهل تفليس وبقية سكان من جهة جورجيا وبلاد المسلمين من جهة أخرى وأطلعنى صديق لى على صور لبعض المساجد هناك وعلى المنائر وقد ظهرت بغير أهلة وقال الصديق

(١) لم تتمكن من التوسع فى ذكر الفتوحات ومقتل سليمان الباهلى لما تنا لل تحقيق الأماكن الجغرافية والتاريخ يعذرنا لتغير العالم والأسماء والاختلاف قائم حولها بين المستشرقين أنفسهم . ولكن أكتفى بنقل ما جاء فى المسعودى عن سبب تسمية سليمان بن ربيعة الباهلى ص ٢٧٠ جزء ٤ : حدث محمد بن عبد الله الدمشقى أن الذى سماه بذلك هو عمر بن الخطاب إذ قال له : أنت سليمان الخيل ، وساق قصة جاء فيها ذكر الخيل بالله وورد فيها أن سليمان بن ربيعة الباهلى كان يهجن الخيل ويعنى فى زمن عمر بن الخطاب .

هذا إن الناس يؤكدون أن زعيم روسيا من جورجيا والحقيقة أن والدته كرجية أما والده فهو من الشمال من أقليم « استوبا » وهو الذى يطلق عليه الجليون « قرشحا » وهذا الصديق من أهل هذا الأقليم ويقول إن غالبية « الأساتين » مسلمون ويغلب عليهم التشيع وأن والد الزعيم البلشفى كان مسلماً شيعيا وأمه كرجية مسيحية ولما مات أبوه أرادت أن تجعل منه قسيساً فادخلته مدرسة دينية : فخرج منها يدعو إلى الثورة.

كنت فى أواخر عام ١٩٢٨ بمدينة استانبول بين القارتين أوروبا وآسيا على ضفاف البوسفور ومرمرة حيث يلتقى البحران وكان قد مضى نيف أعوام أو عشرة على إمضاء هدنة الحرب الأولى ، ومر أكثر من ذلك على قيام الثورة الروسية الكبرى التى حررت الملايين من البشر فى زعمها وسببت تشتيت الآلاف من الناس فقر المرء من موطنه ومن أمه وأبيه والتمس الخلاص من الموت ، فكانت استانبول أول مرحلة من مراحل الهجرة الطويلة التى بدأت عام ١٩١٨ ولم تنته بعد .

وكان المهاجرون يفضلون العاصمة التركية القديمة لا لأنها بقعة من أجمل بقاع الأرض فحسب بل لأن من بينهم من هم من أصحاب العقول أى الفكر ومن هم من أصحاب القلوب أى العاطفة ، فالأوائل يفضلون مركزاً قريباً يرابضون فيه للمراقبة وتلمس الأخبار فى بلادهم أما أصحاب العاطفة فهم الذين لا يصدقون بوقوع ما قد حدث ولا يسلمون بما قد رأته أعينهم ولمسته أيديهم ، إذ ليست الثورة عندهم إلا كحلم من الأحلام ، فمثلهم ممن طالت به الغربة كمثل أهل الكهف « إذ يتساءلون بينهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم » كذلك هم تمر بهم الأيام والشهور والسنوات وهم فى حلم دائم ينتظرون اليقظة لتأتى إليهم بالحقيقة أو هم يسرح بهم الوهم فيقولون : « سنفتح أعيننا يوماً لنعود إلى بلادنا وأعز شىء لدينا ولن نترك استانبول أبداً لأننا الطليعة الأولى التى ستترك أرض المهجر وتستأنف حياتها الأولى بأرض الوطن يوم يزول حكم البلاشفة وليأت من بعدنا من يشاء » .

تلك كانت أمانيهم وهذه كانت آمالهم تقرأها مرسومة واضحة فى عيون الفريق الأكبر من مهاجرى روسيا سواء من موسكو أوشبه جزيرة القريم أو بلاد القوقاز . ورأيتهم وعاشرتهم وصادقتهم وأنست بهم فى العاصمة القديمة للدولة العثمانية ، كانوا من أجناس وأعمار مختلفة ولم يكونوا من طبقة أو فئة واحدة فتقول النبلاء مثلا أو الرأسماليين أو التجار أو الصناع أى الذين أضرت بهم الثورة بل كان بينهم العمال والزارعون والخدام ، لم يكونوا من جنس واحد أو وطن واحد أو دين واحد بل كانوا يهوداً ونصارى ومسلمين كانوا شيعة وسنية . فهم مع اختلاف أديانهم وطبقاتهم وأجناسهم ومراتبهم يمثلون دنيا بأكملها لا وطناً واحدا بل يمثلون قارة من القارات .

وكانوا مع اختلافهم هذا وتباين مذاهبهم السياسية والفكرية تجمعهم عقيدة واحدة وأمل ثابت وفكرة راسخة : هى أنهم مهما طال بهم الزمن وأن تقطعت بهم الأسباب سيعودون يوماً ما إلى تلك الأرض الشرود التى ولدوا عليها ونشأوا بها ، والتى ذهبت من بين أيديهم فصارت حلماً فى أذهانهم يمثله الحنين الدائم والذكريات الخالدة على صدورهم وخفقات القلوب لدى أى خبر يأتى من عزيز فى بلاد لا طريق للوصول إليها .

***

وكانت الحكومة التركية قد أمضت مع الحكومة السوفيتية الروسية اتفاقاً للجنسية جعلت فيه نصاً يخول كل مسلم من مسلمى روسيا يلجأ إلى الأراضى التركية الحق فى اختيار الجنسية التركية وحرمت على اللاجئين من غير المسلمين هذا الاختيار فكان من نتيجة ذلك أن حصل المسلمون من المهاجرين على تبعية البلاد التى استوطنوها وتمتعوا بحقوق المواطن التركى بينما بقى الآلاف غيرهم يحملون جوازات السفر التى أطلقوا عليها اسم « نانسن » والتى تجعلهم عرضة للنفى والتشريد فى أى وقت — ويمرور الزمن تبين لفريق كبير من المهاجرين هذا النص فقالوا لأنفسهم إن كل مهاجر من أصل روسى أو من الأجناس التى خضعت لروسيا ينشرح صدره للاسلام ويشهر اعتناقه له ، يكتسب تواً الجنسية التركية ويصبح عالقاً بتلك الأرض الطيبة التى تفيض عسلاً ولبناً حيث المناظر الخلابة والمياه العذبة والطيور المغردة وحيث الحياة اللينة السهلة التى تعلو ما نشتهى ، وأهم من كل ذلك العيش فى عالم قريب

من الأرض التي نحن إليها — فلم لا نقدم على ذلك ؟

وكان أن دخل عدد من المهاجرين في دين الله أفواجاً منهم اليهودي والارثوذكسي والحر العقيدة ، وفيهم التاجر والمالي والفنان ، منهم من آمن بحق ومنهم آمن ظاهرياً وبقي على دينه الأصلي ولكنهم جميعاً تسموا بأسماء تركية وأخرى إسلامية وسجلوا ذلك على أنفسهم فأصبحت معاملاتهم وتصرفاتهم خاضعة لصفتهم الجديدة وشخصيتهم التي أخذوها وبهذا ضمنوا كإخوانهم المسلمين البقاء في تركيا والحصول على تبعية خاصة وتنازلوا من أوراق « النفوس » وتواعدها ومضايقاتها وفي ذلك كله راحة كبرى واستقرار لهم .

ومن العائلات التي قذفت بها ثورة ١٩١٧ إلى المهجرة عائلة من أشراف مدينة تفليس تعرفت إليها بمدينة استانبول وارتبطت منها بروابط الصداقة والمودة الداعمة وكان تركيا لموطنها الأصلي شاملاً أي كان بالخدم والاتباع صغاراً وكباراً وكانت إقامتها في مدينة استانبول ثم نقلت إلى ناحية على الشاطىء الآسيوي . وكان منزل هذه الجماعة قطعة صغيرة من أراضي جورجيا الشهيدة يجمع كل ما في الروح القوقازية من مرح وسرور وحيوية مع أدب جم وحساسية متناهية وعطف على الفقير وتواضع مع الناس بغير تبذل وكانت مظاهر الكرم والرقبة في إدخال السرور والراحة على الضيوف من الأمور الثابتة الراسخة التي يقوم بها الصغير قبل الكبير أو الخادم عند غياب السيد ، وتفليس ملتقى الشرق مع الغرب بل هي قطعة من هذا الشرق الأوسط ارتبطنا بها خلال القرون الماضية ، لا يفصلنا عنا فاصل .

ومن منا لم يسمع بمدينة مراغه وعلمائها أو برذعة[1] وما كان عليه في الماضي وهذه الأنهار المنحدرة من جبال قفقاسيا أو من جبال آسيا الصغرى بمرفها مؤرخو الحرب ويتحدث عنها مؤلفوهم وبشاء القدر أن تلتقي الأنهر وتصب في بحر قزوين . فالصلات بيننا وبين تفليس كانت قائمة مستمرة ولم يقطعها إلا مجيء الروس في غفلة من الزمن وقطعهم لهذه البلاد وحرماننا منهم وحرمانهم منا . فالوصل حالة طبيعية والقطع الروسي حالة غير طبيعية : تتساءل إلى متى تدوم ؟ ولذلك تشعر أنك لست غريباً عن هؤلاء القوم من أهل تفليس حيث تطل جبال قفقاسيا من الشمال وحيث تظهر في أحيائها المنابر وبقايا المساجد التي كانت يوماً ما عامرة .

لقد أنسنا بالأيام والليالي التي قضيناها مع القوم بل سعدنا بها وكان بالمنزل الذي يقع على شاطىء بحر مرمرة وكيل يدعى قافتراز نشأ أرثوذكسياً على مذهب كنيسة جورجيا وانتهى به المطاف أن دخل وتسمى باسم تركي ، وكان يعامل كأحد أفراد العائلة ، لا يرد له طلب ولا يجنح بطبعه إلى شدة أو إلحاح ؛ فهو جزء من البيت الذي اعتاد عليه في تفليس واستمر على العيش فيه بتركيا لا فارق بين الحالين سوى السنوات تمضي سراعاً .

كان محدثاً ابتاً له مكانه على المائدة الرئيسية : يشرب الأنخاب ويحضر لكل ضيف كلمة طيبة يلقيها بأسلوبه الخطابي مرحباً بالضيف هاتفاً باسمه ولا تنسى أن الموائد تبدأ من الثامنة ولا تنتهي إلا عند أنتصاف الليل ، كانت تمد بالردهة الكبرى شتاء ، وفي الحديقة تحت ظلال الأشجار المطلة على البحر صيفاً ، حيث تكشف وأنت جالس مناظر جزر الأمراء (بريشكبو) ، ومرت الأيام واعتدنا اللغة الكرجية وألفاظ التحية بها ، وأعقب الصيف شتاء وجاءت السنوات تترى . وفي يوم أيام الصيف ١٩٣٤ توفي هذا الرجل الذي أمضى حياته مع أهل هذا البيت الكريم .

وكانت السيدة الفاضلة تعرف قدر إيمانه وتمسكه ، فأمرت بأن يؤتى بقسيس أرثوذكسي وأن يقيم مراسم الصلاة ليلا ، وأوقدت الشموع وسهر أهل البيت يرتلون الصلاة وينشدون تراتيم بلغة الكرج بلسان أوطانهم ، حتى انتهى الأمر عند مطلع الفجر ، وانصرف رجال الدين وقد نفحتهم بمبلغ لا يستهان به . وكان خروجهم من المنزل تحت جنح الظلام في قارب أعد لهم لينقلهم إلى الرصيف المجاور حتى لا ينتبه لمقدمهم ومسيرهم أهل القرية .

وفي الصباح المبكر جاء مختار القرية ومعه الهيئة الاختيارية من أهل بوستنجي وممهم الخطيب والإمام ، وتسلموا جثمان الوكيل وتولوا غسله وتكفينه على سنة النبي العربي وتعاليم الإسلام ،

(١) ذكر صاحب تجارب الأمم في حوادث سنة ٣٣٢ هـ خبر عن الروس واحتلالهم برذعة ثم طردهم منها ونسبي الآن على الخرائط Berda ونسبي نهر الترتور Terter

وساروا به فى جنازة محمولاً فى نعش على الأعناق ، حتى أتوا المسجد فصلوا عليه صلاة المسلمين ، وقاموا بدفنه فى قبور المسلمين وانصرفوا بعد أن قدموا تعازيهم لأهل الفقيد والسيدة الفاضلة

وكانت السيدة على شىء كبير من مكارم الأخلاق ، يغلب عليها الحياء وتخشى أن تجرح الناس فى عواطفهم وأفكارهم ، فاستعملت الحيلة مع مختار القرية وإمامها ، ووسطت من حادثهم رفق وتؤدة ، وطلبت إليهم أن يعفوها عن رسوم الحكومة وتكاليف الجنازة ، وما يطلبه أهل المسجد الذى أقيمت الصلاة فيه ، وما تكلفته البلدية من ثمن للكفن والغسل ومكان للدفن فدهشت السيدة حينما تقدم كبير القرية وقرر أمامها : أن القرية لاتطلب شيئاً وأن الجماعة من الرجال الذين حملوا النعش متطوعون وأن ما قام به إمام المسجد وخطيبه إنما هو واجب عليهم إزاء كل مسلم ، وأن هذا البلد ليرحب بأن يدفن فى ثراه رجل نطق بالشهادتين وأتى إلى بلادهم لاجئاً فحياه الله بنور الإسلام والهداية .

ونظرت السيدة الفاضلة إلينا نحن معاشر المسلمين وقد أتمت حديثها ، وقامت من مقعدها وأخذت حفنة من تراب الحديقة وقالت : هذه الأرض الطيبة فليبارکها الله ، لقد حمتنا بعد جور وأنقذتنا من ظلم ، أما إن أر ما رأيت من أهل الإسلام وما بذلوه لغريب ليس منهم ، فإنى لولا قدم الإسم الذى أحمله لأعلنت اليوم إسلامى ودخلت بينكم . إننى أفهم لماذا لاتدخل الشيوعية بينكم ...

أحمد رمزى

المراجع :

(١) راجع فتوح البلدان فى باب فتوح أرمينية ص ١٩٨ وفتح أذربيجان ص ٣٢١

(٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية فى مادة أذربيجان .

(٣) يقول بارتولد كاتب مقالة ترك فى دائرة المعارف الإسلامية :

« إن أهالى ترك أسلموا فى القرن الثامن الهجرى » . ونهر ترك فى شمالى جبال القوقاز تقع على جانبيه جمهورية القابارداى .

(٤) ذكر ابن خلدون فى تاريخه ص ٣٨٣ الجزء ٢ طبعه :

كان الترك والخزر يعتقدون أن المسلمين لا يغلبون لما رأوا من شدتهم وظهورهم فى غزواتهم . فكانوا يغزون منهم حتى كنوا لهم فى بعض الفيافى فقاتلوا منهم فتجاسروا على حربهم .

(٥) اليعقوبى جزء ٢ ص ١٤٥

كتب عثمان إلى سلمان يأمره على أرمينية فسار حتى أتى البيلقان ، فخرج إليه أهلها فصالحوه ومضى حتى أتى برذعة فصالحه أهلها على شىء معلوم . ونفذ سلمان إلى شروان (على بحر قزوين) فصالحه ملكها ، ثم سار حتى أتى أرض سقط وصالح أهلها وفعل مثل ذلك ملك اللكز (وقد يكونوا Lesginky) ؛

(٦) المسعودى ص ١٧٢ ج ١

كانت الأبخاز والمزرية يؤدون الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فتحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل .

وفى ص ٧٣ ج :

وهؤلاء الضارية (من سكان جنوب القوقاز) يزعمون أنهم من العرب من نزار بن معد بن مضر وأنهم أخذ من عقيل سكنوا هنالك فى قديم الزمن وهم هناك مستظهرون على كثير من الأمم

ظهرت حديثاً

الطبعة الثالثة من المجلد الأول من كتاب :

وحى الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

يطلب من دار الرسالة ومن المكتبات الشهيرة

وثمنه ٤٠ قرشاً عدا أجرة البريد